

ا.د.سعاد هادي حسن الطائي
دراسات في تاريخ المغول والايخانيين
دكتوراه تاريخ اسلامي
عنوان المحاضرة: نتائج المعارك العسكرية بين
الامير بركة خان وهولاكو

كان للاشتباكات العسكرية التي وقعت بين الامير بركة خان وهولاكو وابنه اباقا نتائج عسكرية وسياسية عدة افرزت بتاثيراتها عبر المراحل التاريخية المختلفة بأثار مهمة في الاطراف جميعها.

فمن أهم نتائجها :

1-اضطراب بلاد المغول واحوالهم، وهي جعلت هولاكو منشغلاً عن الاشتباك والنزاع العسكري مع المماليك، اذ لم يتمكن من الحضور بنفسه في المعركة التي وقعت بين الطرفين سنة 658هـ/1259م التي انتصر فيها المماليك على المغول في عين جالوت، ولهذا اضطرت للبحث عن حلفاء واعوان جدد؛ ليقدموا له المساعدة ليقف امام تحالف الامير بركة خان والظاهر بيبرس.

2-فقد توثقت اواصر الصداقة والعلاقات السياسية والعسكرية بين مغول القبجاق وسلطين المماليك في مصر والشام للوقوف بوجه العدو المشترك لهما ألا وهو مغول بلاد فارس وزعيمهم هولاكو، فقد كانت هذه من أهم نتائج هذه الحرب.

فقد كان هذا التحالف فرصة ثمينة للسلطان الظاهر بيبرس، اذ استغلها لتحقيق اهدافه وحفظ مصالح بلاده، لهذا اراد عقد تحالف سياسي مع الامير بركة خان، اذ وجد بتحالفه هذا فرصة مناسبة لأضعاف مغول بلاد فارس بشكل عام، ولأضعاف هولاكو بشكل خاص، فقد بدأت المراسلات بينهما .

وبذلك ضمن السلطان الظاهر بيبرس حليفاً قوياً له يحمي ظهره من جهة مغول بلاد فارس، فضلا عن ان هذا التحالف قد توسع اكثر بعد انضمام حليف اخر لهم وهو الامبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن باليولوجس، فأصبح حلفاً ثلاثياً مما مكن السلطان الظاهر بيبرس من القيام بمشاريعه الكبرى ضد الصليبيين وهو آمن.

*تجدد المعارك العسكرية بين الامير بركة خان و اباقا خان بن هولاکو:

استمر توتر العلاقات السياسية بين الامير بركة خان وهولاکو وقد توضح هذا من خلال تجنب الطرفين كليهما لأحدهما الآخر ،وللإجراءات العسكرية التي اتخذها كلاهما استعداداً لأي هجوم ممكن ان يحدث بينهما .

فقد ذكر الصياد أنه بعد هزيمة هولاکو في معركة عين جالوت تأثر كثيراً فبدأ بالاستعداد لمحو آثار هذه الهزيمة عندها وصلتته الأخبار بتنصيبه اميراً على الممالك الواقعة بين شاطئ نهر جيحون وبين بلاد الشام ومصر وبأمر من اخيه قوبيلاي خان الذي قرر أن يساعد هولاکو ويمده بثلاثين الفاً من امراء المغول، وعندما علم مغول بلاد القفجاق ذلك انزعجوا كثيراً وتجنبوا الاصطدام مرةً اخرى معه.

فبعد وفاة هولاکو في سنة 663هـ/1264م وتولي ابنه أباقا خان (663-680هـ/1265 - 1282 م)الحکم استعداد هذا لحرب الامير بركة خان، فبعث الامير بركة خان جيشه بقيادة سنتاي بن بانيجان بن جفطاي وتوغیثة بن تتر بن مغل بن جوجي خان، وعندما التقى الطرفان هُزم سنتاي وعاد ادراجہ، وهُزم أباقا أمام توغیثة وقُتل عدد كبير من جنده، فعظمت منزلة توغیثة عند الامير بركة خان لما حققه من انتصارات، بينما ساءت منزلة سنتاي عنده لهزيمته في المعركة

ولم تتحسن العلاقات بين الطرفين فقد اشتبك الطرفان من جديد في معارك عسكرية سنة 664هـ/1265م، ففي هذه السنة عبر أباقا خان نهر الكر ، وفي الوقت نفسه وصل الامير بركة خان الى شاطئ هذا النهر وبصحبته ثلاثمائة الف فارس، فانتقل أباقاخان مع جيشه الى الشاطئ الآخر للنهر وامر بتدمير الجسور، وأصطف الجنود من الجانبين على ضفتي نهر الكر وبدأ الفريقان رمي السهام أحدهما اتجاه الآخر، وقد أقام الامير بركة خان معسكره على شاطئ نهر الكر لمدة 14 يوماً، غير انه لم يتمكن من عبوره فأتجه نحو مدينة تفليس ليتمكن من عبور نهر الكر من هناك، وقد مرض في الطريق اليها وتوفي في سنة 665هـ/1266م وحُمل نعشه الى مدينة السراي ودُفن هناك .

*العلاقات السياسية بين الامير بركة خان والسلطان الظاهر بيبرس:

توثقت العلاقات السياسية بين الامير بركة خان والسلطان الظاهر بيبرس نظراً لمواجهتهما معاً لخطر واحد والذي كان يتمثل بهولاكو.

فقد كان الامير بركة خان يُعظم السلطان الظاهر بيبرس ويحترم ورسله، وكان يميل اليه ويوده، فقد استقبل سفارات عدة بعث بها اليه الظاهر بيبرس ويعود لبعضها الفضل في وصف معسكر الامير بركة خان.

قال ابن كثير عن ذلك: (انه كان يناصر الملك الظاهر ويُعظمه ويُكرم رسله اليه، ويُطلق لهم شيئاً كثيراً...)

وقد توثقت هذه العلاقات بينهما أكثر عندما اتحدا معاً ضد مغول بلاد فارس، فقد عُقد تحالف بينهما ولاسيما بعد اعتناق الامير بركة خان الاسلام الذي كان في نزاع مستمر مع ايلخانية المغول في بلاد فارس.

فقد ذكر المقرئزي عن ذلك بقوله: (وقدمت رسل بركة تطالب النجدة على هولاكو وهم الامير جلال الدين بن القاضي والشيخ نور الدين علي في عدة ويخبرون بإسلامه واسلام قومه، وعلى يدهم كتاب مؤرخ بأول رجب سنة احدى وستين وستمائة)

وفي يوم الجمعة المصادف الثامن عشر من شهر شعبان من سنة 661هـ/1262م، خطب الخليفة الحاكم بأمر الله بحضور رسل الامير بركة خان، ودعا للسلطان وللامير بركة خان في الخطبة، وصى بالناس صلاة الجمعة، واجتمع بالسلطان وبالرسل في مسائل تتعلق بالاسلام

وسرعان ما وفدت رسل الامير بركة خان بعد محاربته لهولاكو الى السلطان الظاهر بيبرس سنة 661هـ / 1262م، ومعهم رسالة منه اليه يقول له فيها: (فليعلم السلطان أنني حاربت هولاء الذي من لحمي ودمي لأعلاء كلمة الله العليا تعصباً لدين الاسلام، لأنه باغ والباغي كافر بالله ورسوله..)

وقد اضاف عدد من المؤرخين على محتوى هذه الرسالة: (وقد سيرت قُصادي ورسلي صحبة رسل السلطان... ووجهت ابن شهاب الدين غفاري.... معهم لانه كان حاضراً في الواقعة ليحكي للسلطان ما رآه من عجائب القتال، ثم ليوضح لعلم السلطان أنه موفق للخيرات والسعادات، لأنه أقام أماماً من آل عباس في خلافة المسلمين وهو الحاكم بأمر الله فشكرت همته وحمدت الله تعالى على ذلك لاسيما لما بلغني توجهه بالعساكر الاسلامية الى بغداد واستخلاص تلك النواحي من أيدي الكفار...)

ومما لاشك فيه إن حرص السلطان الظاهر بيبرس واهتمامه على تقوية أواصر الصداقة بينه وبين الامير بركة خان يُعد شاهداً على براعة هذا السلطان سياسياً ومهارته الدبلوماسية، فبفضل هذه السياسة الحكيمة تجنب السلطان الظاهر بيبرس قيام تحالف سياسي وعسكري كان من المتوقع أن يُعقد بين القوى المغولية الكبرى في الشرق الاوسط ضد دولة المماليك الناشئة في مصر والشام، فضلاً عن أن السلطان الظاهر بيبرس قد ضمن وجود شاغل مهم يشغل مغول فارس عنه ويمنعهم من توجيه كل قواهم وجهودهم ضد المسلمين، ولاسيما في بلاد الشام، ولهذا نجد أن الحملات العسكرية لمغول بلاد فارس لبلاد الشام في عهد السلطان الظاهر بيبرس كانت سريعة ومبتورة تنقصها قوة الاندفاع الكبير التي تميزت بها حملاتهم السابقة ، فضلاً عن انشغال مغول بلاد فارس بأمر مغول القبيلة الذهبية والذين أصبحوا حلفاء السلطان الظاهر بيبرس.

ومن السفارات المهمة التي بعث بها السلطان الظاهر بيبرس الى الامير بركة خان في سنة 661هـ / 1262م، السفارة التي ترأسها الفقيه مجد الدين الزوراوي ومعه عدد من المغول ممن توجهوا من بلاد بركة خان الى السلطان الظاهر بيبرس في وقتٍ سابق، وقد بعث السلطان الظاهر بيبرس مع هذا الوفد رسالةً الى الامير بركة خان تضمنت أحوال الاسلام ومبايعة الخليفة العباسي في القاهرة وإحياء الخلافة العباسية فيها، وحثّ في هذه الرسالة الامير بركة خان على مواصلة الجهاد واصفاً له قوة عساكر المسلمين وكثرة عددهم وتعدد اجناسهم من عرب وتركمان وأكراد وبأنهم رهن اشارته وفي طاعته، مشجعاً إياه على قتال هولاکو ، والتقليل من شأنه ومكانته وتقبيح أفعاله حيال المسلمين.

وقد جمع السلطان الظاهر بيبرس جميع أمراءه ورجال دولته وقرأت عليهم الكتب المرسلة الى الامير بركة خان، ثم سُلمت للرسول وبعث معها اثنان من المغول من اصحاب الامير بركة خان ليدلها على الطريق، وتوجهوا الى بلاده بحراً في شهر محرم من سنة 661هـ / 1262م، غير ان الصدفة حصلت بوصول رسل الامير بركة خان الى امبراطور بيزنطة، وهما الامير جلال الدين، والشيخ نور الدين علي، فتوجه كل من رسل السلطان الظاهر بيبرس مع رسل الامير بركة خان الى بلاده، اما الفقيه مجد الدين الزوراوي الذي كان ضمن الوفد المرسل من السلطان الظاهر بيبرس الى الامير بركة خان فقد مرض في الطريق فأضطر للعودة وكان بصحبته رسالة تتضمن مسير الامير سيف الدين وأصحابه الى بلاد الامير بركة خان ومن السفارات المهمة التي بعث بها الامير بركة خان الى السلطان الظاهر بيبرس 661هـ / 1262م، عن طريق البحر هي السفارة التي كان يترأسها رسولان احدهما يدعى جلال الدين بن قاضي دوقات، والآخر يدعى عز الدين التركماني. وكانت رسالته له تتضمن: (أنت تعلم اني محب لهذا الدين، وأن هذا العدو - يعني هلاوون- أي هولاء-، كافر ملعون، وقد تعدوا على بلاد الاسلام، وقتل وسفك وسبى ونهب، وقد وجب عليّ وعليك غزوه وأخذ ثأر المسلمين منه، والرأي أن تقصده أنت من جهتك وأنا من جهتي، ونصدمه يد واحدة، ونزيحه عن البلاد، وأعطيك ما في يده من بلاد الاسلام)

وفي أثر ذلك بعث السلطان الظاهر بيبرس رسله (...وأقبل عليهما، وأنعم لهما بأنعام كثيرة، وشكر له ذلك. ونفذ اليه هدية سنوية، وجهز اليه رسول، وهو الأمير فارس الدين المسعودي الاموي وصحبتة السيد الشريف عماد الدين عبد الرحيم الهاشمي العباسي. وفي جملة الهدية: فيل، وزرافة، وقرود، وحمير وحشية عقابية، وحمير فُرّة مصريه، وهُجُن بيض، وجملة كبيرة من ملبوس ومصاغ وزركش، وشمعدانات فضة ...، وحُصر عبدانية، وأواني صيني، وقماش سكدري ومن عمل دار الطرز، وسكر نبات، وسكر بياض شئ كثير جداً، وكان ضمن الموافقة لما اشار اليه، وطلب الصالح والاتفاق والمعاهدة على هــلاوون) أينما ذكر المقريري عن هذه السفارة بقوله:(جهز السلطان الظاهر بيبرس هدية جليلة للملك بركة وكتب جواب كتابه في قطع النصف في سبعين ورقة بغدادية بخط محيي الدين بن عبد الظاهر، وهو الذي قرأه المسعودي على السلطان بحضور الامراء، وسُلمت الهدية للامير فارس الدين أقوش المسعودي، والشريف عماد الدين الهاشمي، فسارا في طريدة بحرية فيها عدة رماة وجرخية زرافين لمدة سنة،، وسارا في سابع عشرة. وخرجت النجابة الى مكة والمدينة بأن يُدعى للملك بركة ويُعتمر عنه، وأمر الخطباء أن يدعوا له على المنابر بمكة والمدينة والقدس وبمصر والقاهرة، بعد الدعاء للسلطان الملك الظاهر

وقد أضاف د. جمال الدين سرور أن هدية السلطان الظاهر بيبرس كانت تضم ختمة شريفة مكتوبة بخط الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) ، وسجادات للصلاة متنوعة الالوان ، وسيوف ، وخوذ مذهب ، ومنجنيقات ، ومشاعل ، وسروج ، وقناديل مذهب ، وخيول عربية.

ومهما اختلفت آراء المؤرخين في طبيعة هذه السفارة وما حمله سفراؤها الى الامير بركة خان من هدايا، فقد وصل هؤلاء الرسل الى القسطنطينية ووجدوا صاحبها المدعو الباسلوس وهو كر ميخائيل الذي كان مشغولاً في حرب مع الفرنج، فلما بلغه ان هؤلاء الرسل قد قدموا من جهة مصر من السلطان الظاهر بيبرس بعث اليهم فساروا اليه لمدة عشرين يوماً والتقوا به في قلعة كسابا، فأستقبلهم أحسن استقبال وأكرم وفادتهم، ووعدهم بتقديم المساعدة لهم للتوجه الى البلاد التي يريدون التوجه اليها، غير أنهم قد علموا انه قد استقبل، واستضاف عنده عدد من رسل هولاكو، فاعتذر منهم بسبب عدم قدرته على أن يسفرهم على الفور لخوفه من وصول اخبار ذلك الى هولاكو، فأمرهم بالعودة الى القسطنطينية والاقامة فيها حتى يعود اليهم ويجهزهم، ويساعدهم في السفر، غير انه ماظلمهم وتسويفهم لمدة سنة وثلاثة أشهر، فبعثوا اليه قائلين: (إن لم يمكنك المساعدة على توجهنا، فأعيدنا الى مصر).

فأذن لأحد الرسل بالعودة الى مصر وحده لخشيته من هولاكو، بينما تأخر الباقين في العودة لمدة سنتين حتى هلك أكثر ما كان معه من الحيوانات التي كانت هدية السلطان الظاهر بيبرس الى الامير بركة خان.

وفي السنة نفسها بعث الامير بركة خان عساكره الى القسطنطينية وأغاروا على اطرافها، فهرب الباسلوس كر ميخائيل الذي كان فيها، وبعث الفارس الى مقدم عسكر بركة خان يقول فيها: (أن البلاد في عهد السلطان الملك الظاهر بيبرس وصلحه، وأن القان في صلح من صالحه -الملك الظاهر- وعهد من عاهده).

وطلب مقدم عساكر الامير بركة خان خطةً في ذلك، فكتب الفارس له خطة بذلك وانه مقيم بأختياره وانه لم يُمنع من توجهه الى الخان، وفي أثر ذلك رحل عسكر الامير بركة خان من القسطنطينية، واستصحبوا معهم السلطان عز الدين الذي كان محبوساً في إحدى قلاع القسطنطينية أما الباسلوس كر ميخائيل فقد جهز الفارس وبعثه الى الامير بركة خان، وسيّر معه رسول من جهته يحمل رسالة اليه مضمونها أن يقرر على نفسه من جملة ما يحمله كل سنة ثلاثمئة ثوب أطلس على أن يكون في معاهدته، ومدافعاً عن بلاده .

فتوجه الفارس الى الامير بركة خان وعندما التقى به سأله عن سبب تأخره حتى هلك أكثر ما معه من الحيوانات وفسد ما فيها فاخبره أن صاحب القسطنطينية الباسلوس كر ميخائيل قد منعه من القدوم، فاخرج اليه الامير بركة خان خطة ما كتبه الفارس لمقدم عسكره ،قائلاً له: (أنا ما أواخذك لأجل الملك الظاهر وهو أولى ...واخذك على ذلك وافساد ما بعثه اليك).

ولكونه رحل عسكر الامير بركة خان عن صاحب القسطنطينية بما أوهمه من ان البلاد كانت في عهد السلطان الملك الظاهر، وفي الوقت نفسه فإنه كان قدراً على أن يأخذ منه مقابل ترحيله عنه قيمة ما فسد من الهدية لاضطراره الى ذلك، وعندما عاد هذا الفارس الى مصر واجتمع مع السلطان الظاهر بيبرس نقم عليه بسبب ما قام به وألقى القبض عليه وأخذ ما كان معه من البضائع ما قيمتها اربعون الفاً ديناراً مصرية، وكان قد وصل الى مصر سنة 556هـ / 1266م.

وفي الوقت نفسه كتب السلطان عز الدين رسالة الى السلطان الظاهر بيبرس يخبره فيها بكل ما جرى من احداث في القسطنطينية، وما صدر عن الفارس المسعودي من تقصير في واجباته.

وقام السلطان الظاهر بيبرس باستدعاء معظم البطارقة والاساقفة ممن كانوا عنده وسألهم عن مصير كل من ينقض العهد، كما فعل الباسلوس امبراطور القسطنطينية الذي كان سبباً في تأخر رسله الى الامير بركة خان، وكان جوابهم له هو ان يصدر قرار الحرمان بحقه، فأخذ السلطان الظاهر بيبرس اقراراً منهم بذلك وبعث الى الامبراطور راهباً يونانياً ومعه قسيس واسقف ليعلموه بقرار الحرمان، وبعث له في الوقت نفسه كتاباً موبخاً فيه إياه.

ومن خلال مجريات الاحداث التي ترافق حدوثها مع ارسال هذه السفارة التي بعثها السلطان الظاهر بيبرس الى الامير بركة خان يتضح لنا اهتمام السلطان الظاهر بيبرس بضرورة وصول هذه السفارة اليه والتي حمل موفودها هدايا عديدة دليلاً على حسن نواياه حياله وحرصه على تعميق العلاقات معه.

وقد توثقت العلاقات بين الطرفين أكثر من خلال عقد المصاهرات السياسية بينهما، فقد تزوج السلطان الظاهر بيبرس من إحدى بنات الامير بركة خان التي أنجبت له صبي اطلق عليه اسم الملك السعيد خان محمد، والملقب ناصر الدين بركة خان، وهذا يعني أنه كان له اسماً مغولياً الى جانب اسمه العربي الاسلامي، وقد تولى هذا العرش بعد وفاة أبيه.

وقد ذكر المقرئزي أن السلطان الظاهر بيبرس تزوج من ابنة حسام الدين بركة خان بن دولة خان، وانها ولدت له ابنه الملك السعيد سنة 658هـ / 1259م ، ويذكر في موضع آخر أنها ابنة حسام الدين بركة خان الخوارزمي.

وارى انه على الرغم من الاختلاف في تسمية بركة خان في الموضعين كليهما فإن المقصود به هنا هو نفسه الملك بركة خان امير القبيلة الذهبية، وهذا يعطينا دليل على ان بركة خان كان يُلقب حسام الدين، وهو لقب عربي اسلامي.

وقد اعترض بارتولد على سنة ولادة ابن السلطان الظاهر بيبرس من ابنة الامير بركة خان مؤكداً ان ولادته لم تكن سنة 658هـ / 1259م، مشيراً الى ان العلاقات بين الامير بركة خان والسلطان الظاهر بيبرس كانت قد بدأت سنة 660هـ / 1261م وليس قبل هذا التاريخ.

وقد حاول السلطان الظاهر بيبرس المحافظة على استمرار العلاقات المتينة بينه وبين امراء القبيلة الذهبية بعد وفاة الامير بركة خان سنة 665هـ / 1266م، اذ بعث رسالة تعزية الى منكوتر بن طغان الذي تولى الحكم بعد وفاة الامير بركة خان

وسار منكوتر على نهج سياسة الامير بركة خان نفسها في تقوية علاقاته السياسية مع المماليك فاتفق معهم طيلة مدة بقائه اميراً على عرش القبيلة الذهبية حتى سنة 681هـ / 1282م.